رواية الحسناء

زنوبيا

تابع صفحة ١٩٠

فاجبته قائلاً : اني بكل اخلاص اعتقد بان اورليان لا يجسر على ان يأتي بعمل يسوءكم لاني اعرفه تماماً واعرف بانه من الذين يحبون الرئاسة والرفعة وممن نبغوا في الفنون العسكرية . ومع ذلك فهو عادل ومحب للحق . غير ان حبه لروما الذي صار نوعاً من الجنون لربما يحدو به الى فكرة استرجاع وحدة بلاده القديمة ايام انطونين

فاذا اصر على هذه الفكرة من المؤكد دخوله في مشاكل تضر الامبراطورية وتسجل له الشين والعار . اما انا فسمعت الاشاعات التي ذكرتها لي . غير اني لا اعيرها اقل اهتمام وانا ارجو ان لا تؤثر على خاطر الملكة زنوبيا ولا على مستشاريها . فيكفيها مكانة انها ملكة على مملكة تمتد من مصر حتى بلاد اليونان ومن سوريا حتى نهر الفرات مع اعتبار مجلس الشيوخ لها كأنها احد افراده . فهذه مكانة عالية . واني اطلب من الالهة ان تحفظ سكان تدمر من اي ضرر يأتي عن يد اورليان بسبب عدم اعتدالهم او افراطهم في الحكم

ورأيت على محياهما بينما كنت اتكلم ايها العزيز كورنيوس علامات اكدت لي بانهما لا يحتملان اقل مزمة او احتقار لبلادهما

فاندهشت للمثل السامي الذي تشغله زنوبيا في قلوب رعاياها

ثم اجابني جريكوس قائلاً :

— انا اوافقك يا بيزو على ما قلت وساعمل جهدي مستعملاً ما لي من النفوذ في البلاط حتى اجعل اعمالنا كلها غاية في الاعتدال . وخصوصاً في الخابرات السياسية . لان كلمة صغيرة خشنة تلفظ في غير موضعها ربما تقود امماً وممالك الى الخراب . ولكن اقول لك صريحاً بانه اذا وصل الينا من الغرب اخف اشارة من اورليان تدل على انه يعتبر زنوبيا مثلاً يعتبر تيتريكوس في بلاد الجول (فرنسا) تأكد بان في تلك اللحظة نار الحماسة تتأجج في كل تدمر فلا يعود يطفئها الا سفك الدماء والحرب التي تشيب من هولها الاطفال . فالتدمريون كما تعرف تمام العرفان كانوا من القدم احراراً كما جاء في التواريخ . فهم يدفنون انفسهم تحت انقاض عاصمتهم وبلادهم قبلما يخضعون لاية قوة اجنبية . لان الاستقلال

افضل اليهم من الحياة مع الذل والخضوع للاجنبي فهم كلهم يموتون حباً بحفظه

هنا صرخت فوستا : نعم يموتون لانه لا يوجد ولا واحد من سكان تدمر من اذا كان له روحان لا يبذل الواحدة حباً بالحرية والثانية حباً بزنوبيا . فلا تستغربن ذلك يا لوسيوس لانك ما رأيت بعد الملكة ولا تعرف مقدار الحب الذي في قلوب التدمريين من نحوها . فهي عندهم اخت وام وملكة

— دعونا الان من سياسة الممالك ولنصعد بحديثنا للامور الخصوصية لاني اعتقد بان فلسفتكما تعلمكما بان سعادة الافراد اساس سعادة الامم . ولهذا السبب فقط تكونت الحكومات فلنترك سياسة روما واوربليان ولنتكلم عن احوال العزيز لوسيوس بيزو لان مكتوبك الينا يخولنا حق السؤال بكل حرية واخلاص فما اتى بك الينا ايها الصديق من روما الى هذه البلاد والطريق صعبة والمسافة طويلة ؟ فنحن نشكر الالهة لتمتعنا برؤياك والتلذذ بطيب احاديثك . تعسى قدومك لغرض يسر . والآن اخبرنا الخبر اليقين . ونأكد بانا لك من اخلص المخلصين

فقالت فوستا بحرارة : — نعم تأكد ذلك وثق بانك تخاطب صديقين خبيرين ووفيين .

فاجابهما : نعم اخبركما حكايتي ومع انها قصيرة فهي مهمة وتطلب الاسراع في العمل للانتهاء منها . فانا اعرضها عليكما مستشيراً بها اياكما . وانتما تعرفان تمام المعرفة كيف انتهت ايام ابي . واسفاه عليه ! وكيف تصرمت حياته . فانا كلما اتذكره تتقوى فيّ الفضائل . وتتحسن فيّ الصفات . اتصل ابي بالامبراطور فالبريان واصبح من اعوانه حتى اواخر ايامه اذ وقع في الاسر ونال ما نال معه من الهوان والظلم حتى سأم الحياة واستقطع ما اصاب مولاه من الجور . فاهلك نفسه ومات . وقبل مماته سنحت له الفرص فبث في اخوتي رغبته بان يتعهدوا عمله اي الحاق بفالبريان — ليس عاجلاً بل آجلاً . فقال لهم ذات يوم : انتم في عنفوان الشباب . وقوتكم امتن من قوتي فالالهة تساعدكم وتاخذ بيدكم على الاخذ بالثأر . وما الامل الا في ابناء الشباب . ومتى رأت الايام وجاءت الشيخوخة ذهب الامل . ولست انا الآن الا شيخاً لا النفع لشيء غير اني روماني ومن عائلة بيزو . فلا اطيق ملكاً فارسياً يضع قدمه على عنقي . فالموت اذا خيرٌ وابقى !

هذا ما قاله لهم قبيل وفاته . فرأى اخي البكر ان المحافظة على وصية ابي انفع واولى فعرّض نفسه للتهلكة . وذهب شهيد الشرف . اما نحن فاستحسنا عملها اذ انهما نجيا من اهانة سابور الظالم وآل بلاطه بواسطة اهلاك نفسيهما باختيارهما . غير ان اشاعة اتصلت

بنا قبيل سفري من روما بعدة ايام مآلها ان اخي كالبرنيوس حي ونحن نظنه في عالم الاموات . وهو مكرَّم في فارس وقد احبه ابن سابور واسكنه في قصره الخاص . وهو ينتظر من وقت الى آخر حضور من يسهل عليه سبيل الفرار . فيمكنكما الآن ان تتصورا اي حزن واي فرح استوليا عليَّ . فحزنت لتركنا اياه كل هذه المدة الطويلة في الاسر دون اعمل شيء لخلاصه . وفرحت لاملي بقرب لقياه . فسرَّ كلتا وتذهب علامات الكآبة عن محيا بورتيا العزيزة . وهذا الامل اثرت تدمر لظني بانها خير مدينة يمكنني ان ابتدي فيها باعمالي . فلما انتهى بشورتكا واعمل بها بقدر الامكان حتى انجح وارى اخي

وما اتيت بكلي آخر مقالي حتى قالت فوستا لابيها : لو كانت الملكة زنوبيا هنا الان لكان الامر سهلاً وموكداً فجاءنا اذ بواسطتها نتوصل لملك الفرس .... ولكن .... ثم توقفت فقال لها ابوها : عرفت ما اوقفك . فانك تعلمين ان بين زنوبيا من قوة عند ملك الفرس في هذه المسائل . الامر صحيح بانتماع الفرس في سلام وتودد . ولكن هذا في الظاهر . وما نحن حقيقة الا اعداء الداء . نظراً لما فاساه سابور من بطش اوديناتوس وزنوبيا في محاماتهما عن شرف روما والاخذ بثأر الامبراطور فاليريان . فالسياسة فقط هي الحافظة للسلام الذي بين الفرس وتدمر وليست المحبة المتبادلة او مراعاة الخواطر وسابور يخاف قوة زنوبيا متحدة مع روما ضده اذا حصل نزاع بينها وبينه . وثانياً هو يعرف تماماً ان تدمر في كثير بعد اذى روما عنه . فمن صالحه وصالح مملكته بقاء تدمر مستقلة استقلالاً تاماً . فهذه الاسباب السلام سائد بيننا وبينه . حتى اذا وقع الحرب بينتاو بين روما من المؤكد الخيازه الينا ومناصرته لشامع كونه عدواً لنا . فبيلامر قد سقطت بعد المعركة المشهورة اذ وقعت زوجاته وكل حاشيته بين يدي الملك اوديناتوس . فلهذا هو يتحين الفرص للايقاع بنا والانتقام منا . فسألتنا لا تنجح بها اذا طرقنا هذا الباب . وارى ان خير الطرق هو العمل سراً دون ان نتفاوض رسمياً

— لقد اصبت يا فلت . ولكن كلامك قد آتاني كثيراً . اذ الاحلام اللذيذة التي كنت احلم بها وانا في طريق قد زالت . فكنت اظن ان توسلكما الى الملكة يفيدني ما انى . اما الان فقد ظهرت الحقيقة وقد اقتنعت بما قلت . وسأكرس نفسي للقيام بهذا الواجب المقدس سراً حتى ابلغ المنى . روما نسيت امبراطورها اما انا فلا انسى اخي . وسأذهب بنفسي لحرين ذلك الوحش المتجبر . واعود ومعي الحبيب كالبرنيوس . ثلاث عشرة سنة مرت على ذهابه من روما برفقة الامبراطور فاليريان في تلك الحملة المشؤمة .

وكأني اراه امام عيني وهو يودعنا وثوبه الحربي المعدني يلمع . كنت طفلاً يومئذ ومع ذلك ما زلت اتذكره كأنه كان البارحة . فبعد ان قبل بورتيا العزيزة وهي تبكي مال اليّ وبينما كنت بين رجليه اداعب سيفه . وحملني مقبلاً اباي وطالباً من الالهة ان تصيرني رجلاً حالاً لا تولى امر المنزل ومهامه ثم ذهب مع الامبراطور ليحارب اعداء روما في اسيا . وكان اخي في ذلك الحين . واتذكر ذلك جيداً . ذا طبع حاد وحركة سريعة . لكنه كان من نحوي غاية في اللطف

فقالت فوستا : لتكن الالهة معك ولتساعدك في هذا الواجب المقدس الذي ستقوم به بنفسك

قال جريكوس مقاطعاً لا يا فوستا . لا تضعي صوتك لصوت صديقتنا . ان هذا لعين الغرور والطيش . فان هذه المخاطرة التي سيعرض نفسه اليها ربما تعود علينا بشر اكبر لجعل الحزم والحكمة رائدنا . فدعابك بنفسك ايها الصديق لبلاد الغرس معناه بكل تأكيد فقدانك وعدم عودتك . فنخسرك ولا نعمل شيئاً يفيد المهمة التي امامنا الان . فيجب علينا قبل كل شيء النظر في احوال كالبرنيوس . فقد صار له في الاسر ثلاثة عشر سنة . وقد قلت بان ابن سابور صادقه وصافاه . واسكنه قصراً فخيماً . فمن الممكن ان يكون قد صار فارسياً لمضي كل هذه السنوات عليه وهو محاط بالفارسيين . ويمكننا ان نتصورا حالة انسان مثله يبقى في الاسر ثلاثة عشر سنة دون ان تمد اليه بلاده يد المساعدة لانقاذه و بالاخص اذا كانت تلك البلد روما رئيسة الدنيا . فالحالة هذه يغلب على الظن ان كالبرنيوس يعيش الان هناك عيشة امير نظراً لمصادقة ابن سابور له . فشوقي لك ايها الصديق هو انه قبلما تعرض نفسك للخطر وانت اخر واحد الذي يحمل اسم بيزو يجب عليك ان تكون على يقين من الامر . فما هو الذي عرفته للان عنه ؟ وعلى اي شيء تتكل حتى تعمل عملاً بحكمة . فقلت — معلوماتي تقتصر على قول جندي فر من الاسر الينا فاخبرنا وقال بانه رأى كالبرنيوس وجهاً لوجه . وهو مهاناً مع الامبراطور فالبريان في بلاط الفرس . وقد اكد بان ما اتصل الينا من اخبار المعاملة القاسية التي كان يعامل بها الامبراطور هي حقيقة . فان ملك الفرس كان يحضر فالبريان الامبراطور وهو بثيابه الملوكية الارجوانية و يضع قدمه على ظهره حتى يركب جواده امام الشعب وآل بلاطه . وبذات الوظيفة وضع سابور كالبرنيوس في قصر ابنه الامير هو رمبداس . اي ليكون كمصعد يصعد الامير عليه الى ظهر جواده . فكم كان يحزن ذلك الامير على كالبرنيوس

لما كان يلاقيه من ضروب الاهانة بسبب اوامر الملك . ومرات كثيرة كنت لما يضع قدمه على ظهر كاليريوس يسر اليه كلمات الغزاء وبعده يأخرج عندما يخالف اباه على العرش . له خاصة . وتولى الامير امر كاليريوس . واسكنه معه ولكن الجندي لم يعرف باي نوع من الحرية عاشولا اذا كان كاليريوس حياً وقت فراره . هذا كل ما عرفناه ايها الصديقان غير اننا علمنا اخيراً بان فاليريان اثرث الاحزان فيه فقضى نحبه وحنط سلوبر جسده وحفظه . حتى انه كلما يراه يتذكر بانه غلب الجنود الرومانية ونال النصر على صفوفها

وما انتهت من سرد هذه الحكاية حتى قالت لي فوستا

— انها لحكاية مؤثرة . فرجل شجاع كهذا الموت أسهل عليه من هذه المعيشة وصرت اري الآن ان فكر ابي صواب . فان كاليريوس يكون الآن قد نسي روما وما فيها نظراً لعدم ارسال الحكومة من يساعده في النجاة من الاسر وفوق هذا فمعاملة الامير له باللين والمجيء بها تكون سجونه وجعلته ان يحقد على بلاده ويسلوها . فلذا لا تتركك تسافر وتخاطر بنفسك لاجل امر لست على يقين منه . ولعلها هنا اناس الشجاعة والامانة من صفاتهم فيمكنك ان ترسل واحداً منهم . بعدما تعده بجائزة كبيرة تغنيه بها . فيذهب ويأتي لك اما باخيك . او بالخبر اليقين عنه

قال ايوها ان ما قالته فوستا لعين الصواب . فيمكنك ان تجد هنا في العاصمة رجلاً باسلاً لا يهاب الموت . يأخذ هذا العمل على عاتقه فيعمله بالقان وكان اكثر منك . وباصحتنا ملاً يقوم من السوريين واليونان والعرب والرومان هذا شأنهم . فانتق الشجاع يعرف الطريق لبلاد الفرس ويعرف لغة البلاد ولهجة كلام سكانها . لتضع هذه المهمة الخطيرة على عاتقه . وليكن امر ايجاد هذا الرجل شغلنا الشاغل كلنا . اما الآن فالمدينة أمست في سكون عميق لنوم سكانها . وكان الاحسن بنا الاقتداء بهم . فيا فوستا قومي واسمعينا اغنية من اغانيك الحزينة المبرانية على العود حتى يسر لوسيوس و يطرب

اما انا فالحقت عليها بذلك فقامت ومشت نحو نافذة مفتوحة كانت تتدفق منها اشعة القمر الفضية بالدفاق عظيم . ثم جلست امام آلة هناك وقالت : سأغني لكما هذه الاغنية بالمبرانية لان هذه اللغة تلائم النبرات الموسيقية اكثر من اليونانية

ثم ابتدأت فاسمعت صوتاً خلب الباب . وكان صوتها محزناً ومؤثراً للغاية يشبه انين ريح اشجار عارية من الورق من غابة بعيدة . ثم اعقبتها بنشيد محزن يثير الشعور . وفي بعض الاحيان كان صوتها يرتفع ارتفاع الانتصار فيخال لي اني طرت معه الى حيث لا اعلم

وكان النشيد عن اسرائيلي يندب اورشليم المدينة المقدسة وهو في الاسر في بابل ثم ان ذلك الجندي نقل من جوار القصر الملوكي وصار لا يرى فالبريان وقد طلب منه اعداءه انشاد نشيد وطني حتى يطربوا فاجابهم بما انشدته فوستا على عودها وها هو : (١)

جانب الانهار في بابل جلسنا
حينما صهيوننا بالبكا ذكرنا
ثم علقنا على الـ شجر الاعوادا
حيث من عذبنا طلب الانشادا
فرحًا سألنا معشر صبونا
ان نرنم لم بغنا مهيونا
كيف نشدو طربًا بغنا باربنا
في ديار غربة حينما سبينا
ان انا نسيت أو رشليم يومًا
تنس يميني اذن عند ذاك دومًا
ثم بلتصق بحنكي لساني
ان لها لم اذكرن مدة الزمان

وبينما كانت فوستا تنشد هذا النشيد كان في رأسي فكر واحد يشغلني . وما انتهت حتى سألتها : وهل تظني يا فوستا بان الاسير اليهودي لا ينسى بلاده مدة العمر والاسير الروماني ينسى روما؟ لا يا فوستا ابدًا . فكاليرنيوس اذا كان بعد حيًا فهو يعيش رومانيًا. وذلك انا اشكرك من اجل نشيدك هذا لانه اولد في الفرح والسرور مع ان مثله الحزن والكآبة . والان سأنام ملء جفني قرير العين والفؤاد . فاستودعك الله ثم افترقنا . وهذه اول ليلة لي في ندمر

(١) مزمور ١٣٧ نظم الياس صالح اللاذقي